

دور الأتراك السلاجقة في حماية الخلافة العباسية من النفوذ الشيوعي (422-485هـ/1031-1092م)

د. محمد زرقوق

جامعة خميس مليانة

الملخص

بعد انتشار الاسلام بين الأتراك في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، نزحت بعض القبائل التركية من موطنها الأصلي في أواسط آسيا، واستقرت في بلاد ما وراء النهر التي كانت آنذاك جزءا من دار الاسلام. وكان السلاجقة من بين تلك القبائل المهاجرة، واستطاعوا التغلب على كثير من الصعاب والتحديات التي واجهتهم، وأسسوا في خراسان وما جاورها، سلطنة إسلامية قوية قامت بدور لا يستهان به في أحداث المشرق الاسلامي، وخاصة في حماية الدولة العباسية والدفاع عنها ضد أعدائها في الداخل والخارج. وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز الأخطار التي كانت تهدد الخلافة العباسية من قبَل البويهيين والفاطميين، الذين حاولوا إسقاط دولة بني العباس، ونشر المذهب الشيعي في المشرق ليصبح المذهب الرسمي الوحيد المعتمد في العالم الاسلامي.

Résumé

Après l'expansion de l'islam entre les Turcs au IV^e siècle H / Xe siècle, certaines tribus turques se sont déplacées de leur foyer en Asie centrale, et se sont installées dans la Transoxiane, qui faisait alors partie du monde musulman. Les Seldjoukides étaient parmi les premiers nomades turcs, et ont pu surmonter de nombreuses difficultés et défis, et ont fondé en Khorasan et ses environs, un sultanat musulman puissant a joué un rôle important dans les événements de l'Orient musulman, en particulier dans la protection de l'État abbasside et le défendre contre ses ennemis intérieurs et étrangers. Cette étude vise à mettre en évidence les dangers qui menaçaient le Califat Abbasside par les Bouyides et surtout par les Fatimides, ces derniers ont essayé de renverser l'état des

Abbassides et répandre la doctrine chiite en Orient et pour qu'il deviendra la seule doctrine officielle adoptée dans le monde musulman.

بعد اعتناق الأتراك السلاجقة للإسلام في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، واستقرارهم في خراسان، تمكنوا من تأسيس سلطنة إسلامية قامت بدور بارز وهام في التاريخ الإسلامي؛ لأنهم ظهروا في عصر كانت الخلافة العباسية في أشد الحاجة إلى قوة إسلامية سنية تحميها من تسلل النفوذ الفاطمي إلى العراق، وتفاقم نشاط الشيعة في بغداد، وتضع حدا للتهديدات البيزنطية التي عادت بقوة إلى الثغور الجزرية والشامية. وسنركز في هذا المقال على الدور الذي قام به السلاجقة لحماية الخلافة العباسية من المحاولات التي قامت بها الدولة الفاطمية لإسقاطها، ونترك الحديث عن الدور الذي قاموا به لحمايتها من تهديدات الامبراطورية البيزنطية إلى مقال آخر. وقد تطرقنا في هذه الدراسة إلى الظروف التي دفعت بالعباسيين إلى الاستنجاد بهذه القوة الإسلامية الجديدة، وعلاقتها بالخلافة العباسية والدولة الفاطمية، وإبراز دورها في محاولة تقليص نفوذ الشيعة في العراق، والعمل على إزالة الدولة الفاطمية في مصر.

دور السلاجقة في حماية المذهب السني

أ – دورهم في حماية الخلافة العباسية

وردت نصوص كثيرة في المصادر العربية تدل دلالة قاطعة، على تعلق الأتراك المسلمين بالخلافة العباسية، وولائهم الشديد لها، فقد ذكر ابن فضالان في رسالته التي وصف فيها رحلته إلى قبائل البلغار التركية سنة 309هـ/921م، أن أحد ملوكهم وكان حديث عهد بالإسلام اتخذ لنفسه اسم جعفر تيمنا بالخليفة العباسي جعفر بن المعتضد الملقب بالمقتدر بالله (295-320هـ/908-932م)، واعتبر نفسه مولى أمير المؤمنين.¹ ثم قال له متحدثا عن الخليفة: "قل له فوالله إني لبمكاني البعيد الذي

¹ ابن فضالان (أحمد بن العباس بن راشد بن حماد): رسالة ابن فضالان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة 309هـ -921م، حققها سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، دمشق، 1960. ص 118.

تراني فيه، وإني لخائف من مولاي أمير المؤمنين، وذلك أني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه، فيدعو عليّ فأهلك بمكاني وهو في مملكته، وبيني وبينه البلدان الشاسعة"¹. ولما أحرز السلاجقة النصر على الغزنويين وفتحوا خراسان ودانت لهم البلدان، كتبوا في سنة 432هـ/1042م، كتابا إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله (422-467هـ/1031-1075م)، قالوا فيه: "إننا معشر آل سلجوق قوم أطعنا دائما الحضرة النبوية المقدسة وأحببناها من صميم قلوبنا، ولقد اجتهدنا دائما في غزو الكفار وإعلان الجهاد، وداومنا على زيارة الكعبة المقدسة ... ونحن نرجو أن نكون في هذا الأمر قد نهجنا وفقا لتعاليم الدين ولأمر أمير المؤمنين"². وقد سُرَّ الخليفة بهذا الخطاب، وبأدب بإرسال الفقيه السني وأقضى القضاة أبا الحسن الماوردي رسولا عنه إلى الري وطلب منه التقرب من سلطان السلاجقة طغرل بك، ليلتمس منه الانتقال من بلاد فارس إلى العراق، والإقامة في بغداد.³ وتوقيرا للخليفة العباسي ولرسوله، "خرج طغرل بك فتلقيه على أربعة فراسخ أجلا لرسالة الخليفة"⁴، ثم توالى الرسائل والمخاطبات بين الطرفين في عدة مناسبات. وإذا كان الهدف من رسالة السلاجقة هو اكتساب عطف الخليفة، والحصول على الشرعية لدولتهم،⁵ فإنها تدل دلالة قاطعة أنهم لم يعتبروا أنفسهم منافسين للخلافة العباسية ولا منائين لها. وإذا كانوا يندشون الشرعية واعتراف بني العباس بسلطتهم، فما هي دوافع الخليفة لاستقدامهم إلى بغداد وتقديم هذا العرض السخي لهم؟

¹ المصدر السابق، ص 122.

² الراوندي: (محمد بن علي بن سليمان (ت بعد 603هـ)): راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، نقله إلى العربية، إبراهيم أمين الشواربي وآخرون، دار القلم، القاهرة، 1960. ص 166-167.

³ الشنقيطي محمد بن المختار: أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2016. ص 57.

⁴ ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597 هـ)): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992. ج 15، ص 289؛ يذكر الراوندي أن الخليفة أرسل إلى السلاجقة "هبة الله بن محمد المأمون"، (انظر: الراوندي: مصدر سابق، ص 168-169).

⁵ أبو النصر محمد عبد العظيم: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001. ص 54.

مما لا شك فيه أن هذا التقارب السلجوقي العباسي أملت مصلح سياسية ومذهبية أكثر مما هي مصلح دينية، حيث كان الخليفة يبحث عن قوة إسلامية جديدة يرتكز عليها ليتخلص من النفوذ الشيعي الذي تفاقم في بغداد. وتدل الأحداث التي وردت في المصادر العربية، أن الخلافة العباسية في عهد الخليفة القائم بأمر الله كانت تعيش أتعس أيامها، فقد كانت تعاني من ضغطين شديدين، أولهما : خطر الامبراطورية البيزنطية التي استعادت قوتها وتخلت عن سياسة الدفاع التي التزمت بها مدة ثلاث قرون، وانتقلت إلى سياسة الهجوم، ثم راحت تتوسع في إقليم الثغور الشامية والجزرية. وثانيهما : خطر الشيعة بمختلف فرقهم وطوائفهم، ومنهم البويهيون الذين تسلطوا على الخلافة العباسية فأضعفوا هيبتها، وغدت اسما بلا رسم، منذ أن استولى أحمد بن بويه على بغداد، ودخلها دون قتال في سنة 334هـ/954م.¹ ذلك لأنهم من الشيعة الزيدية، ووفقا لمذهبهم فهم لا يعترفون بإمامة العباسيين،² بل يرونهم قد غصبوا الخلافة، وأخذوها من مستحقها، ومن ثمة لم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على طاعة بني العباس، ولذلك فكر بعض ملوكهم في إخراجها من أيدي العباسيين، والبيعة للفاطميين بمصر. ولكن خشيتهم من الوقوع في تبعية كاملة للعلويين جعلهم يحافظون على الخلافة العباسية سوريا، فتظاهروا بالولاء للخليفة، ليضمنوا طاعة الرعية لهم، ولكنهم تسلطوا عليه، وحكموا البلاد حكما مطلقا،³ وسيطروا عليها بشكل كامل، وأصبح الخليفة العباسي مجرد رمز

¹ ابن مسكويه (ابو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (ت 421 هـ) : تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003. ص 275؛ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 14، ص 42-43؛ ابن الساعي (علي بن أنجب البغدادي (ت 674 هـ)) مختصر أخبار الخلفاء، المطبعة الأميرية، بولاق، 1309 هـ. ص 82.

² الشهرستاني (أبو الفتح محمد عبد الكريم (ت 548 هـ)) : الملل والنحل، دار الفكر، بيروت، 2008. ص 124.

³ ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الملقب بعز الدين) : الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، ط 4، بيروت، 1983. ج 6، ص 315؛ معتوق رشاد عباس : الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي (334-447هـ/945-1055م)، أطروحة دكتوراه في الحضارة والنظم الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1990. ص 49.

ديني. وأحسن وصف لحالة الخلافة أيام البويهيين هو ما كتبه المؤرخ ابن الساعي حيث قال : "وتبدلت جدا في أيامهم ولم يبق لها إلا الاسم".¹ ومن شدة ضعف الخليفة أنهم جردوه من جل اختصاصاته ولم يبق له وزير بل كان له كاتب يدير إقطاعاته وأمواله فقط. ثم احتكروا الإدارة والجيش، وأصبحوا يستوزرون لأنفسهم من يشاؤون، وتحكموا في الواردات وموارد الدولة وأمنها.² ولأنهم "كانوا يتشيعون ويغالون في التشيع"،³ فقد عملوا على نشر مذهبهم في العراق، ومكّنوا لأتباعهم، مما أدى إلى اندلاع العديد من المصادمات بين الشيعة والسنة في بغداد.

وأشارت المصادر ضمن حوادث سنة 338هـ/949م، إلى أول فتنة وقعت بين أهل السنة والشيعة، حيث كان حي الكرخ -معقل الشيعة في بغداد- مسرحا لها، فتعرض للنهب. وازداد هذا الصراع الطائفي والمذهبي خلال العهد البويهي (334-447هـ/945-1055م)، واتخذ طابعا دمويا. ووجد شيعة بغداد في الملوك البويهيين حماة وأنصارا لهم، وكانوا في عاشوراء يكثرزون الحزن والبكاء، وتخرج النساء كاشفات عن وجوههن ينحن ويلطمن وجوههن وصدورهن ويملؤون بذلك الطرقات والأسواق.⁴ كما نصبوا أبراجا كتبوا عليها محمد وعلي خير البشر، فمن رضي فقد شكر، ومن أبى فقد كفر، فأنكرت السنة إقران علي مع محمد (صلى الله عليه وسلم) في هذا، فنشبت الحرب بينهم، وامتنع البويهيون عن كف الشيعة عن القتال، فقتل من الفريقين خلق كثير. كما انتشرت ظاهرة سب وتكفير الصحابة، ولعن معاوية بن أبي سفيان، فثار أهل السنة من هذا التعريض والتعدي على صحابة النبي (صلى الله عليه وسلم).⁵ ووردت في المصادر العديد من المصادمات التي وقعت بين الشيعة والسنة في بغداد طيلة العهد البويهي. وظلت الفتن والاضطرابات المذهبية تتكرر بين المسلمين عبر السنوات، فخلقت ضحايا بشرية وخسائر مادية من

¹ ابن الساعي : مصدر سابق، ص 82.

² ابن الأثير : مصدر سابق، ج 6، ص 315؛ معتوق رشاد عباس : مرجع سابق، ص 46.

³ المصدر السابق، ج 6، ص 315.

⁴ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 14، ص 75؛ ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل ت 774هـ) : البداية والنهاية، تحقيق أبو الفضل الديمياطي أحمد بن علي، دار الغد الجديد، القاهرة، 2007، ج 11، ص 45، 180.

⁵ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 15، ص 329-330؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 59.

الطرفين، ورسبت الأحقاد بينهما. وكان أبرز مظهر لهذه الكراهية هو ممارسة السلب والنهب وارتكاب أبشع الجرائم من قتل وتدمير وتخريب بينهما. وكان البويهيون يتحيزون دائما إلى جانب شيعة بغداد، فيشجعونهم ويناصرونهم، والأمثلة على ذلك كثيرة.¹

وقد حرص البويهيون على توفير غطاء فكري وعلمي لمذهبهم، فعملوا على رعاية العلماء القائلين بوجهة نظرهم، فقبوهم إليهم وشجعوهم على تأليف الكتب التي تخدم المذهب الشيعي كوسيلة لمحاربة المذهب السني، ونشر مذهبهم وتحويل المجتمع الإسلامي نحو الإيمان بمعتقداتهم. ومن أبرزهم موسى بن داود الشيرازي، الذي اشتهر بلقب المؤيد في الدين، وهو من عائلة شيعية على المذهب القرمطي، وقد كان يجيد اللغة العربية والفارسية. ومن أشهر مؤلفاته كتاب المجالس المؤيدية ويضم ما كان يلقيه في مجالس الدعوة الإسماعيلية بعد أن ترقى في سنة 451 هـ/1059م، إلى مرتبة داعي الدعاة، وله أيضا كتاب الإيضاح والتبصير في فضل يوم الغدير، بالإضافة إلى كتب أخرى وديوان شعر.² وهو يعد من أخلص دعاة الفاطميين في المشرق، وقام بدور هام لنشر الدعوة في فارس والعراق لصالح حاكم مصر المستنصر بالله الفاطمي،³ وكان يجتمع بالملك البويهي أبي كاليجار كل ليلة جمعة، واستطاع أن يقنعه بدعوته، فقال له الملك يوما : "إني أسلمت نفسي وديني إليك وإنني راض بجملة ما أنت عليه".⁴ وقد شهد عصرهم عددا غير قليل من محدثي الشيعة وفقهائهم الذين عملوا على نشر التشيع بين عامة الناس، بوضعهم

¹ أبو سيف فتحي : أبحاث وقضايا في تاريخ المشرق الإسلامي، (د ن، د م، د ت)، ص 218؛ معتوق رشاد عباس : مرجع سابق، ص 71-91.

² معتوق رشاد عباس : مرجع سابق، ص 69-70. تظهر عقيدته في القصائد التي يمدح فيها الفاطميين وعلى رأسهم المستنصر بالله، وللإطلاع أكثر عليها (انظر : المؤيد في الدين : ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، القاهرة، 1949. ص 221-222).

³ سرور محمد جمال الدين : سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1994. ص 180.

⁴ المؤيد في الدين : سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، ترجمة حياته بقلمه، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، القاهرة، 1949. ص 43.

لأحاديث غريبة وروايتهم لها. منهم المحدث الشيعة أبو الفتح الأزدي الموصلية (ت 367هـ/977م)، الذي قال عنه الخطيب البغدادي : "وفي حديثه غرائب ومناكير"¹ وذكر أنه "قدم بغداد ونزل على الأمير البويهية، فوضع له حديثا : أن جبريل كان ينزل على النبي (صلى الله عليه وسلم) في صورته، فأجازه وأعطاه دراهم كثيرة"² هذا في بغداد أما في المدينة المنورة فقد "كان أصحاب الحديث لا يرفعون به رأسا ويتجنبونه"³. ومنهم أبو المفضل الشيباني الذي كان يروي غرائب الحديث وجاء في المصادر أنه كان دجالا كذابا، وكان الناس يكتبون عنه، فلما ظهر لهم كذبه مزقوا ما كتبوه عنه من حديث وأبطلوا روايته. ومن فقهاءهم أبو القاسم علي بن أحمد العلوي الكوفي (ت 352هـ/963م)، الذي يعتبر من الشيعة الغلاة، وقد ألف كتابا سماه الاستغاثة في بدع الثلاثة. ويقصد بالثلاثة الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم)⁴. والأمثلة كثيرة لا يسع المجال لسردها.⁵

وإضافة إلى ما كان يعانيه الخليفة العباسي القائم بأمر الله من تسلط البويهيين عليه، فقد واجه أيضا تمرد قائد جيشه أبو الحارث البساسيسري الشيعي⁶ الذي قام بحركة عسكرية كادت أن تعصف بالخلافة العباسية، لما شكلته من تهديد

¹ البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي الخطيب (ت 463هـ)) : تاريخ بغداد أو مدينة السلام منذ تأسيسها حتى سنة 463 هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج 2، ص 243-244.

² البغدادي : مصدر سابق، ج 2، ص 244.

³ نفسه.

⁴ المصدر السابق، ج 5، ص 466-467؛ معتوق رشاد عباس : مرجع سابق، ص 104.

⁵ للتعرف أكثر على هؤلاء المحدثين والفقهاء، انظر : معتوق رشاد عباس : مرجع سابق، ص 103-113.

⁶ البساسيسري : هو أبو الحارث أرسلان، بدأ حياته مملوكا تركيا في خدمة البويهيين، وتدرجت به المناصب حتى أصبح قائدا للجند في مدينة بغداد. وللإطلاع أكثر (أنظر : الحسيني (صدر الدين أبو الحسن علي ناصر بن علي (ت بعد 622هـ/1125م)) : أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق محمد إقبال، نشرات كلية فنجان، لاهور، 1933. ص 18؛ ابن العبري (غريغوريوس الملقب (ت 685هـ)) : تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، (د.ت). ص 184؛ ابن خلكان : (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ)) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ت). ج 1، ص 192-193؛ أبو النصر محمد : مرجع سابق، ص 62، هامش رقم 2).

مباشر وخطير عليها، وعلى شخص الخليفة القائم بأمر الله. لقد استطاع هذا الجندي ببراعة تخطيطه أن يصل إلى القمة، وقد ساعدت الاضطرابات والفوضى التي كانت سائدة في بغداد زمن القائم بأمر الله، على صعود نجمه، حيث شكل قوة عسكرية موالية له. وبما أن الخليفة كان في حاجة إلى شخصية قوية يعتمد عليها لإخماد الفتن المذهبية، فقد استعان به لاستعادة الأمن في بغداد رغم أنه شيعي المذهب، "فقدمه على جميع الأتراك، وقلده الأمور بأسرها"،¹ وسرعان ما اكتسب ثقة الخليفة فمنحه الألقاب الفخرية مثل "المظفر"، وذاع صيته في العراق لقوة شوكته وكثرة عدته،² "فعظم أمره واستفحل شأنه، لعدم نظرائه من مقدمي الأتراك المسلمين بالاصفهلارية، واستولى على البلاد، وانتشر ذكره، وطار اسمه، وتبهرت به أمراء العرب والعجم، ودعي له على كثير من المنابر العراقية، وبالهواز ونواحيها، وجبى الأموال، وخرب الضياع، ولم يكن الخليفة القائم بأمر الله يقطع أمراً دونه، ولا يحل ويعقد إلا عن رأيه".³ ولم يبق لأحد معه حكم.⁴

ولكن العلاقة بينه وبين الخليفة سرعان ما توترت، وانقلب الود الذي كان بينهما إلى عداوة وحرب سافرة. وتعود بداية الخلاف إلى استيلاء أمير الموصل أبو المعالي قريش بن بدران على مدينة الأنبار، فاستاء البساسيري من ذلك؛ لأن هذه المدينة تقع تحت سلطته. وزاد استيأؤه حين علم بوصول رسولين من قريش بن بدران إلى الخليفة القائم بأمر الله الذي أكرم وفادتهما، ولما أراد البساسيري إلقاء القبض عليهما حال بينه وبينهما علي بن المسلمة رئيس الرؤساء (وزير الخليفة)، وهو سني على المذهب الحنبلي، وعلى حد تعبير ابن الجوزي فقد كان يجتهد في أذى أهل الشيعة. وفي هذا الجو المحفوف بالصراع بين البساسيري الشيعي الذي يمثل السلطة العسكرية، وابن المسلمة السني الذي يمثل السلطة المدنية، سعى كلاهما إلى البحث عن حلفاء له، ونجحا في نسج علاقات مع مختلف القوى داخل العراق

¹ ابن خلكان : مصدر سابق، ج 1، ص 192.

² ابن القلانسي (ابو يعلى حمزة (ت 555هـ)) : ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908. ص 87.

³ البغدادي : مصدر سابق، ج 9، ص 399-400.

⁴ الذهبي (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت 784هـ)) : دول الاسلام، حققه حققه وعلق عليه حسن إسماعيل مروة، دار صادر، ط 2، بيروت، 2006. ج 1، ص 384.

وخارجه. فقد حظي البساسيري بحماية آخر سلطان بويهّي آنذاك، وهو الملك الرحيم (440-447 هـ/1048-1055م)، ثم تحالف مع دُبَيْس بن مَزِيد الشيعي، أمير بني أسد. بينما حظي ابن المسلمة بحماية الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وتحالف مع قريش بن بدران السني أمير الموصل، وفي ظل هذه التحالفات دارت بين الأطراف المتصارعة بعض الأعمال العدوانية.¹ وكان البساسيري متأثراً بدعوة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي الاسماعيلي المذهب، وقامت بينهما علاقات واتصالات سرية، ويبدو أن ابن المسلمة كان على علم بها، ولما وصل أمرها إلى القائم بأمر الله عن طريق وزيره، "صح عند الخليفة سوء عقيدته"، ثم وصل شهود إلى القائم بأمر الله أبلغوه أن البساسيري عازم على نهب داره والقبض عليه،² فانزعج الخليفة منه وانقلب عليه، وكاتب الملك الرحيم يبلغه "أن البساسيري خلع الطاعة وكاتب الأعداء يعني المصريين وأن الخليفة له على الملك عهد وله على الخليفة مثلها".³ ولم يجد الملك البويهّي بدا من الاستجابة لطلب الخليفة، حيث أبدى استعداده لإبعاد البساسيري عن عاصمة العباسيين.

هذه الأخطار دفعت القائم بأمر الله إلى مراسلة السلطان السلجوقي طغرل بك طالبا منه القدوم إلى بغداد، وربما كان ذلك بتأثير من وزيره ابن المسلمة، لأنه كان "يؤثر مجيئه ويختار انقراض الدولة الديلمية".⁴ كما تأكد للخليفة أن الدولة البويهية عاجزة عن ضبط الأمور في العراق، ورأى في السلاجقة قوة إسلامية بديلة تحقق له طموحاته الداخلية والخارجية، وقادرة على مكافحة المذهب الشيعي الذي بلغ ذروته في بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وأدرك أن مصلحته تفرض عليه الاتصال بهم لأنهم يمثلون القوة الغالبة،⁵ وهم على

¹ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 15، ص 344؛ ج 16، ص 6، 344؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج

8، ص 63-64، 68؛ أبو سيف فتحي : مرجع سابق، ص 220.

² البغدادي : مصدر سابق، ج 9، ص 400.

³ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 71.

⁴ نفسه.

⁵ طقوش محمد سهيل : تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، دار النفائس، بيروت، 2002. ص

33؛ السرجاني راغب : قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي، مؤسسة

أقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط 2، القاهرة، 2009. ص 29؛ قمعون عاشوري : العلاقات

المذهب السني، ويحبون أهل السنة ويوالونهم ويرفعون قدرهم، وقد أعلنوا احترامهم وولاءهم للخلافة، فاستغاث بهم.¹

ولم يتردد السلطان طغرل بك في تلبية دعوة القائم بأمر الله، فأعلن أنه سائر إلى بلاد الشام لفتحها وسينتقم من أعداء العباسيين،² حيث "أظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوي صاحبها"، وأرسل رسولا إلى الخليفة العباسي لتقديم فروض الطاعة والولاء له. ولما دخل بغداد في رمضان سنة 447هـ/1055م، أصدر الخليفة أوامره، للأئمة بالخطبة له بجوامعها. ثم قام بالقبض على الملك الرحيم البويهي، متهما إياه بإثارة العامة على السلاجقة في بغداد، وأودعه السجن. ورغم إنكار الخليفة على طغرل بك اعتقاله للملك الرحيم، فإن السلطان السلجوقي رفض إطلاق سراحه، ثم حمله أسيرا إلى قلعة طبرك قرب مدينة الري، حيث ظل معتقلا بها ثلاث سنوات حتى بلغته الوفاة. وبذلك زالت الدولة البويهية وبادت، حيث كان الملك الرحيم آخر أمراء الديلم وملوك بني بويه، وبزوالها اضمحل نوء الرافضة في بغداد، وفقدوا نصيرهم وعضدهم.³ ولم يحظ طغرل بك بمقابلة الخليفة إلا في سنة 449هـ/1058م حيث استقبله استقبال الفاتحين، قائلا له : "إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس بقربك وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده ورد عليك مراعاة عبادته..." وخاطبه "بملك المشرق والمغرب...".⁴ وبذلك نال اعتراف الخليفة به سلطانا على جميع المناطق التي تحت يده. ونال السلاجقة الشرعية التي كانوا يطمحون إليها، كما حصلوا أيضا على

العسكرية بين الدولتين السلجوقية والبيزنطية (429-794هـ/1038-1391م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، إشراف أ د محمد الأمين بلغيث، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية، 2008-2009. ص 14.

¹ الحسيني : مصدر سابق، ص 18؛ ابن كثير: مصدر سابق، ج 11، ص 210.

² ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 15، ص 349.

³ نفسه؛ الاصفهاني : مصدر سابق، ص 10؛ الراوندي : مصدر سابق، ص 169؛ الحسيني : مصدر سابق، ص 19؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 71، الذهبي : مصدر سابق، ج 1، ص 384؛

ابن كثير: مصدر سابق، ج 11، ص 208، 210.

⁴ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 71.

الزعامة السياسية والدنيوية، واحتفظ الخليفة بالزعامة الروحية¹ ولذلك يعتبر طغرل بك المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة في إيران، والعراق، واستطاع خلفاؤه أن يقيموا على هذا الأساس بناء شامخا ومجدا عظيما، بلغ بلاد الروم والبحر المتوسط غربا، وتخوم الهند والصين شرقا.

أما البساسيري فلما أيقن من إغراض الخليفة العباسي عنه، سلك سياسة عدائية ضده، وتجراً على مهاجمة دار الخلافة "ونهبها، وأحرقها ونقض أبنيتها واستولى على كل ما فيها". ولما علم بقرب وصول السلاجقة هرب بجيشه من بغداد واتجه إلى إمارة الحلة، وارتقى في أحضان الدولة الفاطمية، حيث "كاتب المستنصر بأمر الله صاحب مصر يذكر له كونه في طاعته وإخلاصه في موالاته وعزمه على إقامة الدعوة له في العراق وأنه قادر على ذلك وغير عاجز عنه"²، ثم رأى أن إمارة الحلة غير مناسبة له، فبي لا تتسع لجيشه كما أنها قريبة من بغداد، حيث يمكن لطغرل بك أن يهاجمه دون عناء. وقد وجد البساسيري في ثورته ضد الخليفة العباسي القائم بأمر الله، تأييدا ودعما من أولي الأمر في مصر وعلى رأسهم المستنصر بالله الفاطمي الذي ولّاه على مدينة الرحبة ووعدته بالمدد. واستمرت المكاتبات بينه وبين الداعي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، الذي كان آنذاك في القاهرة، وكتب إليه البساسيري في إحدى رسائله يقول : "ما أوتينا عن ذلة ولا عن قلة، ولكننا عن قوس المكرمين، وبماء السحر سقين، فإن أخذتم بأيدينا أخذنا لكم البلاد، وإن قلدتمونا نجاد نصركم وإنجادكم، فتحنا من جهتك الأغوار والأنجاد"، والتمس منه المساعدة بالمال والخيول وال سلاح. ولما أوكلت إليه حكومة القاهرة مهمة توصيل الإمدادات إلى البساسيري، فقد عمل على كسب ولاء أمراء مدن الشام والجزيرة التي مر عليها وهو في طريقه إلى الرحبة، وحذرهم من الخضوع للسلاجقة، وقد استطاع أن يقنع بعضهم على الدخول في طاعة المستنصر والدعوة له، وضرورة الانضمام إلى صفه. ولما وصل المؤيد في الدين إلى الرحبة والتقى بأبي الحارث البساسيري نصبه

¹ محمد عمر يحيى : الفتح والتوسع السلجوقي في آسيا الصغرى في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، مجلة جامعة الملك عبد العزيز : الآداب والعلوم الإنسانية، مج 14، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، 2006م/1427هـ ص 43.

² ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 87.

قائدا عاما للجيش نيابة عن المستنصر الفاطمي، وأخبره أن مهمته هي القضاء على الخلافة العباسية.¹

شعر الخليفة القائم بأمر الله بالقلق والخوف من تعاظم حلف البساسيري، فطلب من السلطان طغرل بك ضرورة تفتيت هذه القوة المتحالفة والقضاء عليها، ويبدو أن السلطان استهان بقوة عدوه، ولم يقدّر زها قوتها الحقيقية، أو ربما انشغل بتمرد وعصيان بعض جنده في بغداد، حيث اكتفى بإرسال فرقة يقودها ابن عمه سهم الدولة قتلّمش بن إسرائيل، فلم يجد المعسكر الشيعي صعوبة كبيرة في تحقيق الانتصار على السلاجقة قرب سنجار في نهاية شوال 448هـ/بداية 1057م،² مما كان له أكبر الأثر في ارتفاع معنويات البساسيري، الذي واصل قطف ثمار انتصاره، فاستولى على الموصل والكوفة وواسط، وأعلن فيها الخطبة للمستنصر الفاطمي الذي هلّل لانتصار قائد جيشه في العراق، "وسُرّت الرافضة بذلك سرورا زائدا".³

وفي رمضان سنة 450هـ/1058م، خرج طغرل بك بجيشه من بغداد ليقوم بمهمة عسكرية شاقة ضد أخيه إبراهيم ينال الذي أعلن العصيان والتمرد وتحصن بهمدان، وربما حرضه البساسيري، والمؤيد في الدين الشيرازي على الانشقاق والتفرد بالحكم، وغدت عاصمة العباسيين خالية من قوة السلاجقة، "وعلم [البساسيري] أن بغداد فريسة لمن طلب، وقبضة لمن رغب فزحف إليها بالرايات المستنصرية"، فاضطرب أمرها اضطرابا شديدا، وأرجف المرجفون باقترابه منها. ولم يجد صعوبة تذكر في اقتحامها؛ حيث كان قائدا عسكريا بها، فهو يعرف أبوابها وحصونها وأحيائها، ولذلك بدأ الهجوم من جهة الكرخ معقل الشيعة، وكان يحمل رايات عليها اسم المستنصر بالله، ورفع أهل الكرخ الأذان بحي على خير العمل، وظهر فيهم

¹ البغدادي : مصدر سابق، ج 9، ص 400؛ المؤيد في الدين : سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، ص 96، 100-120، 124-125؛ أبو سيف فتحي : مرجع سابق، ص 225-227.

² ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 77؛ أبو سيف فتحي : مرجع سابق، ص 226.

³ الذهبي (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت 784هـ)) : تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، حققه بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2003، مج 9، ص 615.

السرور الكثير.¹ ثم انتقل إلى الجانب الشرقي من المدينة حيث يقيم الخليفة القائم بأمر الله، فهاجم دار الخلافة، ودور كبار رجال الدولة العباسية ونهبها، وأجبر الخليفة على كتابة وثيقة "أشهد على نفسه العدول أنه لا حق لبني العباس في الخلافة مع وجود [أبناء] فاطمة الزهراء"،² ويقصد بهم الفاطميين حكام مصر، ثم أرغمه على الانتقال إلى حديث عانة، "ونقله عن عزة المجالس إلى ذل المحابس"،³ حيث ظل هناك معتقلاً مدة سنة كاملة، واعتقل رئيس الرؤساء "ابن المسلمة، وجعله في جلد ثور وصلبه حتى جفَّ عليه فمات".⁴ ورفع الأعلام العلوية في سماء بغداد، ونكس الأعلام العباسية، وقطع الدعوة لبني العباس "وكسر منبر المسجد الجامع وأنشأ منبر (العز) وخطب عليه (للإمام) المستنصر بالله ونقش اسمه على السكة"،⁵ ويعلق الذهبي على هذه الأحداث قائلاً: "وأذنت الرافضة بحيي على خير العمل، وضعف أمر القائم بأمر الله ... وانطوت الدولة العباسية وقامت الدولة الرافضية".⁶

ومن الواضح أن أبا الحارث البساسيري قد حقق هدفه، إذ انتقم من الخليفة القائم بأمر الله العباسي ومن وزيره، وأجبره على التنازل عن حقه في الخلافة، والخروج من بغداد، وحاول المستنصر الفاطمي نقله إلى مصر ولكنه فشل في مسعاه. كما أدت هذه الثورة إلى تعاظم نفوذ الدولة الفاطمية، وانتشار مذهبها في العراق وغيرها من بلدان الشرق.⁷ ولذلك كانت هذه أخطر ثورة شيعية في التاريخ العباسي، إذ كادت أن تقوِّض أركان الخلافة العباسية إلى الأبد. فكيك تمكن السلاجقة من إنقاذها ؟

¹ المؤيد في الدين : سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، ص 175-176، 180؛ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 16، ص 31، 32؛ ابن الأثير: مصدر سابق، ج 8، ص 83.

² المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي) : اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، لجنة إحياء التراث الاسلامي، القاهرة، 1971. ص 253.

³ المؤيد في الدين : سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، ص 180.

⁴ ابن الصيرفي (امين الدين تاج الرياسة ابي القاسم علي بن منجب بن سليمان) : الاشارة إلى من نال الوزارة، حققه عبد الله مخلص، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، 1923. ص 45.

⁵ ابن الصيرفي : مصدر سابق، ص 45؛ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 89.

⁶ الذهبي : دول الإسلام، ج 1، ص 386-387.

⁷ أبو سيف فتحي : مرجع سابق، ص 234-235.

كان شحنة بغداد ايتكين السليماني، قد وقع أسيرا في يد البساسيري، غير أنه تمكن من الهرب، ثم وصلته رسالة من الخليفة العباسي طلب إليه أن يبلغها إلى السلطان طغرل بك، ومما جاء فيها : "بحق الله أدرك الإسلام فقد ساد العدو للعين وأخذ ينشر مذهب القرامطة".¹ فاستشاط السلطان غضبا، وكان قد ظفر بأخيه ابراهيم ينال فقتله.² ثم أرسل كتابا إلى البساسيري طلب منه ضرورة إعادة الخليفة إلى بغداد فورا، وإقامة الخطبة باسمه من جديد، ولكن البساسيري اشترط "أن يكون هو النائب على باب الخليفة، والخدام دون غيره، وردّ خوزستان، والبصرة إليه على قديم عادته، وأن يخطب للخليفة فقط دون أن يشاركه في الخطبة ركن الدين، وأن يحلف الخليفة على تنفيذ هذه الشروط".³ ولما علم طغرل بك بمطالب البساسيري قاد جيشه وعاد مسرعا إلى العراق، حيث اقتحم بغداد في شهر ذي القعدة سنة 451هـ/جانفي 1059م، وحرص على لقاء الخليفة قبل أن يتوجه لمحاربة البساسيري، ثم اعتذر منه عن تأخره لفك أسره وإعادته إلى بغداد، وبعد أن أعاده إلى دار الخلافة استأذنه في الذهاب وراء البساسيري، وانتهت المعركة التي دارت بين الطرفين بانهزام جيش البساسيري، ومصرع قائده في 11 ذي الحجة 451هـ/19 جانفي 1060م. ورغم أن هذا التمرد الشيعي لم يعمر أكثر من سنة، فهو أعظم محاولات الفاطميين جسارة للقضاء على الخلافة العباسية والهيمنة على قلب الاسلام.⁴ ولكن طغرل بك كان لهم بالمرصاد، حيث أعاد الحياة للخلافة السنية، وأنقذها من كيد الشيعة الذين كانوا يتربصون بها.

ولم يكتف الأتراك السلاجقة بالحصول على الشرعية لدولتهم، وبالمساعدة العسكرية التي قدموها للخلافة العباسية، بل دعموا سلطتهم السياسية برابطة اجتماعية قوية مع العباسيين، حيث تزوج القائم بأمر الله بخديجة ابنة داود أخي السلطان طغرل بك، وكان ذلك في محرم 448هـ/1057م، وتعززت هذه الرابطة أكثر حين تقدم السلطان طغرل بك لخطبة ابنة الخليفة القائم بأمر الله، وهو أمر غير

¹ الراوندي : مصدر سابق، ص 172.

² ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 89.

³ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 16، ص 48.

⁴ المصدر السابق، ج 16، ص 51، 54؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 86؛ ابن كثير : مصدر سابق، ج 11، ص 221؛ الشنقيطي : مرجع سابق، ص 58.

مسبوق. إذ لم يتقدم أمير أعجمي لمصاهرة البيت العباسي من قبل، فأبدى الخليفة انزعاجا وامتناعا في البداية، ولكن عوامل الضعف والخوف جعلته يوافق مضطرا على هذا الطلب، وتم الزواج سنة 455هـ/1063م. وكانت هذه المصاهرة صفقة تهدف إلى تحقيق مآرب سياسية بحتة، تجعلها بعيدة عن أن تكون زواجا خالصا، لأن طغرل بك كان عقيما، بالإضافة إلى عمره الذي قارب السبعين عاما، كما أنه وقت الزواج كان غليلا، فلم ينعم بعروسه الهاشمية، ولم يترك ولدا وراءه يخلفه في السلطنة.¹

وقد ترتب عن هذا التقارب العباسي-السلجوقي، أن بدا التيار السني جارفا في العالم الإسلامي، على يد الأتراك السلاجقة، الذين أنقذوا الخلافة العباسية بعد أن أوشكت على الانهيار أمام النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ الفاطمي في مصر والشام. وبما أنهم أصبحوا حماة للدولة العباسية، فقد وجدوا أنفسهم يخوضون صراعا عسكريا، وفكريا ضد الدولة الفاطمية التي كان نشاطها موجها لتحقيق هدف واحد هو الإطاحة بالخلافة العباسية.²

ب - دورهم في محاربة الدولة الفاطمية

وبعد أن أمسك السلاجقة بزمام الأمور في بغداد، ورثوا عن العباسيين الصراع المذهبي الذي كان بينهم وبين الفاطميين، واتخذ ذلك الصراع طابع الحرب الباردة. فاستغلت الدولة الفاطمية ضعف الخليفة في بغداد وعملت على تصدير مذهبها إلى العراق والشام وإفريقية، ولكن الخلافة العباسية تصدت لها بالتحالف مع الأتراك السلاجقة، الذين أخذوا على عاتقهم مواجهة المد الشيعي في العالم الاسلامي. والحقيقة أن الدولة الفاطمية كانت تعمل منذ مدة على تقويض أركان الخلافة العباسية بمختلف الوسائل، حيث لجأ حاكمها الظاهر³ إلى محاصرتها عن طريق

¹ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 16، ص 65، 75: الحسيني : مصدر سابق، ص 21: ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 105: الذهبي : تاريخ الاسلام، ج 9، ص 614: أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 76-77: محمد عمريجي : مرجع سابق، ص 46.

² سيد أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر : تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية، ط 2، القاهرة، 2000. ص 185، 195: الصلابي علي محمد : مرجع سابق، ص 53.

³ الظاهر (411-427هـ/1021-1036م) : هو أبو هاشم علي، الملقب بالظاهر لإعزاز دين الله، ابن الحاكم بن العزيز بن المعز ابن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله، تولى عرش مصر وعمره

تحسين علاقته مع البيزنطيين، فأبرم معهم هدنة في سنة 418هـ/1027م، نصت على تمويل الإمبراطورية البيزنطية لمصر بكميات معتبرة من القمح، وإقامة الخطبة له بجامع القسطنطينية مقابل أن يعيد فتح كنيسة القيامة في بيت المقدس، وترميمها، وأن يسمح للنصارى بفتح جميع كنائسهم. ثم وُقِّعت اتفاقية أخرى في سنة 427هـ/1036م، مدتها عشر سنوات، وفي سنة 439هـ/1047م (في عهد المستنصر بالله)، "تجددت الهدنة بين صاحب مصر وبين الروم وحمل كل واحد منهما لصاحبه هدية عظيمة". وكان الهدف من تجديدها، تأمين جانب البيزنطيين حتى يتفرغ الفاطميون لمواجهة الدولة العباسية في المشرق، والمعز بن باديس الصنهاجي (406-453هـ/1015-1062م) في المغرب، الذي شق عصا الطاعة على الفاطميين في إفريقية "وأرسل رسولا إلى بغداد ليقيم الدعوة العباسية". وكان البيزنطيون من جهتهم يريدون التفرغ للسلاجقة الذين زادوا من حملاتهم على الأقاليم الشرقية، ولما عجزوا عن مواجهتهم عسكريا، جنحوا للسلم سنة 441هـ/1050م.¹

أما العباسيون فقد كانوا يبحثون عن فرصة لفرض حصار على الدولة العبيدية، تمهيداً للقضاء عليها. فاستعانوا بالسلاجقة الذين تمكنوا من بسط نفوذهم على بيت المقدس في سنة 463هـ/1071م، وبعد أربع سنوات ضموا إليهم مدينة دمشق، ثم تطلّعوا إلى مصر. فبفضلهم عاد النفوذ السني إلى الشام، ووضعوا حداً لأحلام الفاطميين وطموحاتهم، وقلصوا مساحة دولتهم، وأجهضوا مشروعهم الرامي إلى الإطاحة بالخلافة العباسية. ومنذ ذلك الوقت باتت الدولة الفاطمية مثل غيرها من الدول والأسرات الحاكمة آنذاك، تواجه التهديد المتنامي لقوة الأتراك السلاجقة الذين أخذوا في التقدم السريع من الشرق،² لحماية العالم الإسلامي من "الصحوة البيزنطية"، وحماية أهل السنة من كيد الشيعة.

ولم يعتمد السلاجقة في حربهم ضد الفاطميين على المواجهة العسكرية فحسب، بل واجهوهم سياسيا وفكريا أيضا. فبعد أن أمسكوا بزمام الأمور في بغداد، تعقبوا

سنة عشر سنة. كان محبا للهو، واشتهر بسياسة التقارب مع الدولة البيزنطية. (انظر: المقرئزي : اتعاظ الحنفا، ج 2، ص 124-183؛ سيد أيمن : مرجع سابق، ص 183).

¹ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 46، 55: المقرئزي : اتعاظ الحنفا، ج 2، ص 176، 182، 214؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج 8، ص 52؛ سيد أيمن فؤاد : مرجع سابق، ص 186.

² الذهبي : مصدر سابق، ج 1، ص 403.

دعاة الاسماعيلية الذين نشروا الدعوة الفاطمية في بلاد فارس، كما أقصوا الموظفين المتشيعين للمذهب الإسماعيلي الذين كانوا يشرفون على دواوين الحكومة والوظائف الدينية.¹

ولما أدرك الوزير نظام الملك² الخطر الذي يهدد الخلافة العباسية من زيادة النشاط الدعوي لطوائف الشيعة في كسب أعداد كبيرة من عامة الناس، لجأ إلى محاربتهم فكريا وتربويا عن طريق تأسيس عدد من دور الثقافة والتعليم في أماكن متعددة من ديار الإسلام، وكان يريد منافسة جامعات ومدارس الدولة الفاطمية في مصر، خصوصا مؤسسة الأزهر في القاهرة. ومن أشهر ما أنجزه هذا الوزير السلجوقي، المؤسسات التي عرفت بالمدارس النظامية التي بدأها في عام 459هـ- 1066م،³ وقد كان الهدف منها، تخرج العديد من المؤهلين الذين يتولون الوظائف العامة المختلفة، وإدارة الشؤون الإدارية والثقافية والدينية في الدولة الإسلامية، ممن تشربوا مبادئ الإسلام الصافية واتضحت أمامهم أهمية مؤسسة الخلافة وخطورتها وضرورة الوقوف بحزم للدفاع عنها، والتصدي لحركات التشيع التي ظهرت بأساليب وأسماء مختلفة. فضلا عن نشر المذهب السني ومناهضة المذهب الشيعي، ونشر الوعي والثقافة الإسلامية الصحيحة لتحصين الفرد ضد الأفكار التي تدعو إليها فرق الشيعة.⁴

¹ الصلابي : مرجع سابق، ص 73.

² نظام الملك الطوسي : هو قوام الدين أبو علي الحسين بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي. . كان وزيرا لألب أرسلان، وابنه ملكشاه، وإضافة إلى نشاطه السياسي والإداري، كان راعيا للعلم، وإليه تنسب المدارس النظامية. وقد حذر السلاطين السلاجقة في كتابه "سياسة نامة" (سير الملوك)، من مخاطر الوقوع في حبال الإسماعيليين، أو السماح لهم باختراق بنية الدولة. (انظر: أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 21؛ الصلابي : مرجع سابق، ص 134-143؛

Hillenbrand R. : *Seldjukids*, in : *Enc. Isl.*, E. J. Brill, Leiden, 1995. t. VIII, pp. 936-964).

³ الصلابي : مرجع سابق، ص 130؛ سيد أيمن فؤاد : مرجع سابق، ص 196؛ الشنقيطي : مرجع سابق، ص 68، 101.

⁴ البسام هيفاء عبد الله العلي : "الوزير السلجوقي نظام الملك"، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف د. حسام الدين السامرائي، الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، السنة الجامعية 1979-1980. ص

ومن العوامل التي ساعدت السلاجقة على محاربة أفكار الشيعة، وجعلتهم يتولون حركة الإحياء السني، أن مذهب المعتزلة الذي ازدهر في عصر الخليفة العباسي المأمون، وتطور في العصر العباسي الثاني، قد أخذ في الضعف في نهاية القرن الرابع الهجري، بفضل أئمة الدين، وعلى رأسهم أبو الحسن الأشعري¹ الذي حمل على آراء المعتزلة وحاربهم حرباً شعواء ووافق أهل السنة في كثير مما ذهبوا إليه. وللأثرak مسؤولية كبيرة في هذا التحول؛ لأن طبيعة عامتهم لا تقبل الجدل الكلامي، ولا كثرة المذاهب الدينية. فالأثرak في جميع عصورهم قل من اعتنق منهم مذهباً في الأصول غير مذهب أهل السنة وفي الفروع غير مذهب أبي حنيفة، وقل ما حدث بين علمائهم خصومة في المذاهب.² وأمام النجاح الذي حققته تلك المدارس، لجأ الشيعة الباطنية إلى العنف، فكان الوزير نظام الملك هدفاً لهم، حيث تم اغتياله على يد الاسماعيلية سنة 485هـ/1092م.

ويظهر جلياً من الأحداث السابقة، أن العالم الإسلامي كان يمر بفترة حرجة عندما اعتنق السلاجقة الإسلام، ليس بسبب ضعف الخلافة العباسية فحسب، بل لنهضة الإمبراطورية البيزنطية في عهد الأسرة المقدونية التي تمكن قادتها من دحر المسلمين إلى ما وراء الثغور، واقتطاع أجزاء كبيرة من أطراف الجزيرة والشام. وبظهور السلاجقة على مسرح الأحداث، وحصولهم على الشرعية من بغداد، انتهى العهد الذي كانت فيه بيزنطة وحليفها الدولة الفاطمية يجدان على حدودهما دولة إسلامية ضعيفة، تعاني من الانقسام المذهبي والسياسي، بل وجدتا أمامهما قوة إسلامية جديدة جارفة، استطاعت تجديد شباب الدولة الإسلامية وحمايتها من الأخطار التي كانت تحيط بها، وأهمها الخطر البيزنطي الذي كان يترصص بها في هذه

144: ماهر سعاد : أثر الماوردي في الفن السلجوقي، المؤرخ العربي، العدد العاشر، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، (د.ت.)، ص 50.

¹ أنظر آراء المعتزلة والأشعرية في : الشهرستاني : مصدر سابق، ص 33-62، 75-83: أحمد أمين : ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، ط 10، بيروت، (د.ت.) ج 3، 21-207: أحمد أمين : ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، ط 5، بيروت، 1969. ج 1، ص 39-42، 221-222.

² أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج 1، ص 41: ماهر سعاد : مرجع سابق، ص 47: سيد أيمن : مرجع سابق، ص 195.

الفترة، وتلقت منها الإمبراطورية أول ضربة خطيرة.¹ وقد كان أحفاد سلجوق أشد دفاعا عن الإسلام وعن أهل السنة من العباسيين أنفسهم، كما كانوا حماة غيورين على المذهب الحنفي،² ولم يكتفوا بإعلاء كلمة الدين داخل حدود البلاد الإسلامية، بل كان عليهم أن يوسعوا حدود ديار الإسلام، وخاصة في غرب آسيا، حيث كان عليهم أن يخوضوا حربا ضروسا ضد الأرمن والبيزنطيين في الأناضول.

¹ محمد عمريحي : مرجع سابق، ص 43؛ قمعون عاشوري : مرجع سابق، ص 19؛

Diehl Charles : Byzance grandeur et décadence, Ernest Flammarion éditeur, Paris 1920. p. 237.

² بارتولد فاسيلي فلاديميروفيتش : تاريخ الترك، ص 127.